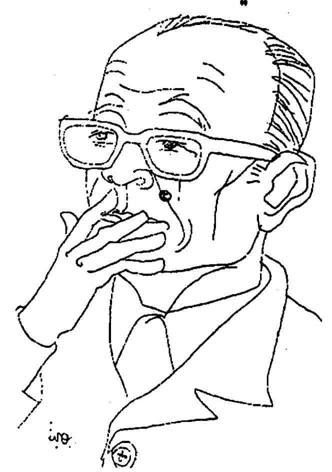
دارة الكرز كراسات نقدية (١)

حرافيش نجيب محفوظ

تأملات في الظاهر والباطن



أسامة فرج

دارة الكرز

دارة الكرز
للنشر والتوزيع

Copyright
All rights reserved ©

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة أو تصويره دون موافقة كتابية من الناشر.

Exclusive rights

No part of this publication reproduced, distributed in any form or by any means or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

دارة الكرز
للنشر والتوزيع

١٧ ش منشية البكري - مصر الجديدة

Darat al-Karaz,
17 Manshiyyat Al-Bakri St, Cairo

تليفون: ٠٢/٤٥٥١٣٠٤

Email: darkaraz@yahoo.com

الكتاب: حرافيش نجيب محفوظ

الغلاف: بريشة الفنان بهجت عثمان

المؤلف: أسامة فرج

الناشر: دارة الكرز

عدد الصفحات: ٦٤

سنة الطباعة: ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٨٤٩٧/ ٢٠٠٧

الترقيم الدولي: 977-6156-64-9

إهداء

إلى نجيب محفوظ

وإلى بهجت عثمان

أسامة

أي فروغ ماء حسن

إز روى رخشان شما

إبروى خوبى ازجاه

ونخسدان شما

استوقفتني الكلمات المرصوصة إلى جوار بعضها على هيئة الشعر.. وسألت نفسي: ترى بأي لغة هذه الأناشيد؟!.. ربما كانت بالفارسية أو بالتركية فكلاهما تكتب في الظاهر بحروف عربية وإن كان الباطن (المعنى) يشير إلى غير ما يظهر في الحروف والكلمات.. ولكن إذا كانت هذه الأبيات غير مفهومة لي فهي بالضرورة غير مفهومة لغيري من قراء العربية الذين كتب لهم نجيب محفوظ هذه الرواية.. فلماذا وضعها الرجل بهذه اللغة ولماذا لم يقدمها مترجمة إذا كان يريد أن يوصل إلينا معنى محدداً؟!.. وكيف يمكن لرجل بسيط مثل (عاشور) أن يفهم هذه اللغة ومن أين له بكل هذا الوجد والسلام الروحي الذي يشعر به حين يستمع لأناشيد التكية الأعجمية؟!.. ترى ماذا في الباطن؟!.. ما المراد؟!.. وما هو المعنى؟!..

أسئلة كثيرة راودتني بشأن هذه الأبيات ولكني أفلحت في الفرار من أسرها ومضيت في قراءة الرواية مأخوذا بأحداثها

وأبطالها إلى أن حانت لحظة جعلتني أقفز إلى الفصل الأخير لأتأكد من خاطر داهمني بأن هذه الرواية شديدة الصلة بنا، وأن لها باطنا مفعما بالأسرار، وأن هؤلاء الفتوات تموج بداخلهم أرواح أعرفها.. في النص إشارات وتلميحات، ولو صدق ظني سيختتم كاتبنا العبقري روايته بفتوة أخير من سلالة الناجي وسيسميه عاشور أيضا، وسيجعل مهنته الأولى هي رعي الأغنام.. ووقعت عيني مباشرة على السطر الأول من المقطع الرابع في الحكاية العاشرة من حكايات الحرافيش.. وانتفضت وقد اشتغلت روحي بالكشف.. «واشتغل عاشور الابن الأصغر صبيا لغنام يدعي أمين الراعي تعهد إليه الأسر بما تملك من ماعز يسرح بها في الخلاء لتمرح وتتمتع بالشمس والهواء والأعشاب.. وذلك لقاء أجر معلوم»..

إذن هذا هو.. وها هي الرواية تكاد تبوح لي بسر من أسرارها فلماذا لا أتجاسر وأدخل من جديد..

• ملحمة الحرافيش

في المعجم الوجيز الملحمة هي الحرب الشديدة، وهي القصيدة الطويلة التي تقص حوادث جليلة وبطولات خارقة في أسلوب فخم.. ترى ما هو نصيب (ملحمة الحرافيش) من هذا

المعنـى.. رأيـت في الحـرافيش حكايـة أمـة مـن البـشر العـادة (الحرافيش) وقصة صراعهم الطويل والدائم مـن أجـل العدالـة.. تلك التي تحتاج إلى من يحققها ويمسك بزمـام ميزانهـا فـلا يختـل، هؤلاء الذين يمسكون بالميزان هم القادة والحكام.. أو بلغة محفوظ هم (الفتوات)..

الصراع الطويل هنا هـو صراع هـؤلاء الفتـوات (المتجسدة فيهم آمال وأحلام الحرافيش) ضد قوى الطبيعة والواقـع وأهـواء النفس من أجل الاقتراب مـن المعنـى الحقيقـي للعدالـة.. في هـذا الصراع الطويل تسيل الـدماء وتتقطـع أوصـال ولحـوم، وتقـترب الآمال حتى تكاد تتحقق وتبتعد حتى تكاد تختفي..

والقصة مكتوبة بلغة فخمـة وكأنهـا الـشعر.. وتأمـل معـي المقطع الأول من الحكاية الأولى من ملحمـة الحـرافيش «في ظلمـة الفجر العاشقة، في الممر العابر بين الموت والحياة، عـلى مـرأى مـن النجوم الساهرة، عـلى مـسمع مـن الأناشـيد البهيجـة الغامـضة، صدحت مناجاة متجسدة للمعاناة والمسرات الموعـودة لحارتنـا».. مثل هذا المقطع ستجد الكثير في ملحمة الحرافيش.. اللغـة المكثفـة الموحية، وهل الشعر إلا هذا التكثيف وهذه القدرة على الإيحاء، مع جزالة في اللفظ غير جديدة على نجيب محفوظ، فنادرا مـا تـصادف في كل أعماله كلمة بغير الفصحى حتى في الحوار.

• **عاشور الناجي**

هو الأب الذي انحدرت منه سلالة الفتوات أبطال الملحمة، وهو أولهم.. ولا أظن أني سأفلح في تلخيص قصته وأرى في محاولة ذلك عدواناً وضرراً بالغاً بالنص البالغ الثراء.. وكل ما أريد الإشارة إليه هو سمات في الشخصية، وروح قوية، شديدة الحضور تذكرني بشخصية وروح عمر.. نعم عمر بن الخطاب.

•• تعال معي لنتأمل الاسم – فقد اعتدنا مع نجيب محفوظ أن نلتفت إلى أسماء الشخصيات وما توحي به – الاسم (عاشور) ولعلنا نلحظ التشابه بين منطوق اسمه ومنطوق اسم (عمر).. ولعلنا نلحظ أيضا معنى (العشرة) أي (الحياة) ومعنى (العمر) في الاسمين.

أما عن الصفات الشخصية فتعال معي لنتأمل وصف نجيب محفوظ لعاشور الناجي «طوله فارع وعرضه منبسط، ساعده حجر من أحجار سور التكية، ساقة جذع شجرة التوت، رأسه ضخم نبيل، قسماته وافية التقاطيع، غليظة، مترعة بماء الحياة».. ألا يذكرك هذا الوصف بصفات عمر المذكورة في كتب التاريخ.. تلك الصفات التي جعلته مرهوب الجانب قبل إسلامه ومن بعده..

وألا يذكرك هذا الوصف برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شاهد العمرين (عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام) ودعائه صلى الله عليه وسلم بأن يعز الله الإسلام بأحد العمرين..

•• تأمل معي ما يقوله نجيب محفوظ عن عاشور قبل النجاة وقبل أن يصبح الفتوة العادل وسيد الحارة «رغم ما عرف عن عاشور من دماثة الخلق فان واحدا من رجال قنصوة الفتوة لم يتحرش به» و«كان يشاهد ما يصيب بعض جيرانه من عنت الفتوة ورجاله فيكظم غيظه ويطيب خاطر المظلومين بكلمات لا تغني ويدعو للجميع بالهداية حتى قال له جار ذات يوم: إنك لقوي يا عاشور ولكن ماذا أفدنا من قوتك».. ألا يذكرنا هذا بعمر قبل الإسلام، وما كان يتمتع به من قوة ذاتية تقيه شر عتاة قريش.. وألا يذكرنا موقف عاشور من المعذبين بموقف عمر من المعذبين من المسلمين الأوائل.. فلم يذكر التاريخ أنه دخل في صراع أو مواجهة بسببهم.. وذكرني قول جار عاشور بقول قلته لنفسي وأنا صغير اقرأ واستمع لقصص المعذبين الأوائل في الإسلام فقد كنت اسأل نفسي نفس السؤال.. وأين عمر؟!.. لماذا لم يتدخل بقوته الاسطورية ليدافع عن بلال وياسر وعمار وسمية؟!..

•• لم يتمكن (عاشور) من حفظ القرآن إلا ما يكفي لأداء الصلاة، وكذلك كان (عمر) فيما يروى عنه أنه كان يجد مشقه في حفظ السور الطويلة من القرآن..

•• كلاهما (عمر) و(عاشور).. «كان يحاكم نفسه محاكمة قاسية كلما تورط في خطأ»..

•• عاشور ضرب أبناءه حين اكتشف شربهم للخمر (البوظة) وكذلك فعل عمر فقد حدّ ابنه عبد الرحمن في شرب الخمر ويقال إنه توفى متأثرا بالجلد..

•• ألا يذكرنا (الوباء) الذي حل بالحارة بالمجاعة و(عام الرمادة) في عهد عمر.. وألا يذكرنا لجوء عاشور إلى الجبل كملاذ له ولأهله من التهلكة بعد رؤية رأي فيها شيخه وهو يقوده إلى الجبل كملاذ.. ألا تذكرنا الرؤية واللجوء إلى الجبل بموقف مشابه حين قطع عمر خطبته على نحو مفاجئ ونادى: يا سارية الجبل.. فسمعه وهو على بعد آلاف الأميال منه قائد جيش المسلمين وكان اسمه (سارية) فلجأ إلى الجبل فكانت نجاته ونجاة جيش المسلمين من دمار محقق..

•• في حوار بين (عاشور) وزوجته (فلة) في ملاذهم بحضن الجبل تقول «لماذا ترك الله الموت يفتك بالناس؟.. فيجيبها بعنف:

من يدري.. لعلهم في حاجة إلى التأديب» ألا يذكرنا هذا الحوار برؤية عمر بن الخطاب للعقاب الإلهي بأنه جزاء عادل وردع للظالمين والكافرين.. ودعونا نتذكر تشبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بنوح الذي قال ربي لا تدع على الأرض من الكافرين ديارا.. كلاهما (عمر) و(عاشور) يؤمن بالعقاب الإلهي الرادع..

•• تأمل معي وصف نجيب محفوظ لدار البنان وقد دخلها عاشور بعد النجاة والعودة إلى الحارة «سقفه عال لا تبلغه رؤوس الجان، في وسطه نجفة مثل قبة الغورى ومن أركانه تتدلى القناديل، على جوانبه أرائك مغطاة بالسجاجيد المزركشة كما تغطي جدرانه بالحصر الفاخرة وأطر الآيات المذهبة».. تأمل الوصف وتذكر معي وصف قصور كسرى وقد دخلها المسلمون في عهد عمر.. تذكر معي هذه الحالة من الدهشة التي انتابت المسلمين حين شاهدوا مظاهر العز في هذه القصور..

•• يقول عاشور بعد أن استولى على دار البنان ودور الأعيان الخاوية على عروشها، وقد استحل لنفسه وأهله أن ينفقوا مما وجدوا فيها «المال حرام ما لم ينفق في حلال.. المال حلال ما دمنا ننفقه في حلال».. ويقول «اسأل الله أن يكون المال قد وقع في يد من يستحقونه.. أعني الفقراء».. ويقول «لم استأثر بالمال لنفسي..

اعتبرته مال الله واعتبرت نفسي خادما مخلصا له.. أنفقه على عباده، فلم يعد يوجد جائع ولا متعطل..».. ألا تذكرنا هذه الأقوال بالرؤية العمرية للعدالة القائمة على الأخذ من مال الغني لصالح الفقير وأن المال مال الله وأن الحاكم مستخلف فيه وعليه أن يديره بما يرضى الله ويحقق العدالة بين الناس..

•• «عرف عاشور بوجيه الحارة الوحيد.. يشار إليه بإكبار ويقال له بإخلاص (سيد الحارة)».. ألا يذكرنا لقب (سيد الحارة) بلقب (أمير المؤمنين).. عاشور أول من لقب بـ (سيد الحارة) وعمر أول من لقب بـ (أمير المؤمنين).

•• تأمل معي فترة فتونة عاشور (سيد الحارة) واستحضر معي فترة خلافة عمر (أمير المؤمنين) ولاحظ معي التشابه بينهما.. يقول نجيب محفوظ عن عهد عاشور «كان راعي الفقراء يتصدق عليهم، ولم يقنع بذلك فكان يشتري الحمير ويسرح بها العاطلين أو يبتاع لمن يريد عملا السلال والمقاطف وعربات اليد حتى لم يعد عاطل واحد في الحارة عدا العجزة والمجاذيب» ويقول «كان يمضي بهيكله الضخم يكبح المتجبرين ويرعى الكادحين وينشر التقوى والإيمان».. ويقول «أقام فتونته على أصول لم تعرف من قبل.. رجع إلى عمله الأول ولزم مسكنه تحت الأرض كما ألزم كل تابع

من أتباعه بعمل يرتزق منه، وبذلك محق البلطجة محقاً، ولم يفـرض إتاوة إلا على الأعيان والقادرين لينفقها على الفقـراء والعـاجزين.. وانتصر على فتوات الحارات المجاورة فأضفى على حارتنـا مهابـة لم تحظ بها من قبل، يحف بها الإجلال خارج الميـدان، كـما سـعدت في داخله بالعدل والكرامة والطمأنينة».

ألا يذكرنا هذا بعمر فقد كان أيـضا منحـازاً لقيمـة العمـل، مشجعاً عليه، دافعاً له.. قال لأحد المسلمين المنقطعـين للعبـادة.. من ينفق عليك.. قال أخي.. قال أخـوك خـير منـك.. كـان عمـر أيضا يمشي في الأسواق بهيكله الضخم يكبح المتجبرين والبلطجية ويرعى الكادحين. لزم عمـر أيـضاً مـسكنه وألـزم نفـسه وأتباعـه العمل ورضي لنفسه وأهله عيشة التقشف وألزم الأغنيـاء بالزكـاة ينفقها على الفقراء وانتصر على الفرس والروم وفتح البلاد وأضفى على أمة المسلمين مهابـة في الخـارج كـما سـعدت في عهـده الأمـة بالعدل والكرامة والطمأنينة في الداخل..

ثم ألا يذكرنا في النهاية موت عمر باختفاء عاشور النـاجي.. يقول نجيب محفوظ عن وقع خـبر اختفـاء عاشـور «نـما الخـبر إلى الأعيـان والتجـار فـدهمهم الـذهول وتفـشى في جـوهم سـحر كالمعجزة.. ولولا الإشـفاق مـن خيبـة عاجلـة لأسـدلوا الـستائر

وجهروا بالشماتة والفرح.. فليدم الغياب.. ولتطو الأسطورة وليقلب الوضع إلى الأبد».. ألا تذكرنا هذه الحالة بحالة عتاة قريش وأغنيائها حين عرفوا بموت عمر وأنهم قد تخلصوا أخيراً من قوة كابحة كانت تمنعهم من العتو والتجبر والتمتع على حساب خلق الله.. كانوا أيضاً متوجسين ويخافون إعلان الفرحة لحزنهم من استمرار نهج عمر من بعده.. فقد ترك الخلافة من بعده دون أن يعين بالاسم من يخلفه.. وعاشور أيضا لم يعين بالاسم من يخلفه في الفتونة!!

•• الاستلهام

وبعد.. هل يمكننا رغم كل هذه الإشارات أن نقول إن (عاشور) هو (عمر)؟.. لو فعلنا ذلك لكنا أجهل خلق الله بالفن.. فعاشور الناجي ليس هو (عمر بن الخطاب)، ولا هو (عمر بن عبد العزيز) وتجدر الإشارة هنا إلى أن عمر بن عبد العزيز هو حفيد عمر بن الخطاب فهو ابن ابنته، ولا يخفى ما بين سيرة العمرين من تشابه في التقوى والورع والتقشف وإدارة شئون البلاد والعباد بأمانة وحزم وعدل لصالح الفقراء (الحرافيش).. كما تجدر الإشارة أيضا إلى تشابه بين (عاشور) و(عمر بن عبد العزيز) في النجاة من الوباء.. فقد نجا عمر بن عبد العزيز من وباء ألم بمصر وكان فيها وهو طفل بينما مات والده مصابا بالوباء في حلوان.

رغم كل هذه الإشارات لأوجه الشبه فإن أحدا لا يمكنه أن يقول إن عاشور هو أحد العمرين.. ولكننا نستطيع أن نقول إنه شخصية روائية مستلهمة من أيهما أو منهما معاً.. عاشور شخصية روائية متقنة الصنع، عامرة بالأضداد، تأثرت بمحيطها وأثرت فيه، شخصية قادرة على إثارة المشاعر وتحريك الأفكار وتبني وجهات النظر، عاشور شخصية روائية مثله مثل سعيد مهران وصابر الرحيمي وعيسى الدباغ و.. و.. كلهم وغيرهم شخصيات روائية مستلهمة من شخصيات عاشت في الواقع أو في التاريخ.. شخصيات تموج بأرواح قوية قادرة على إلهام الأديب وإمداده بالمادة الخام التي يتعامل معها فيضيف إليها ويحذف منها ويقدم ويؤخر ويخفي ويظهر دون أن تفقد الشخصية روحها الأساسية الكامنة فيها فنرى المنتج في النهاية (وكأنه هو).. ولمزيد من إيضاح وجهه نظري دعونا نتذكر ما حدث بين النبي سليمان وخدمه من الإنس والجان حين أمرهم بإحضار عرش بلقيس فلما أحضروه قال لهم نكروا لها عرشها فلما رأته قالت (كأنه) هو.. ففي كلمة (كأنه) هذه يكمن الفن وتكمن القدرة على التحوير والتبديل والإخفاء والتورية، تلك العمليات الفنية التي تبلغ أقصاها حين يرى المتلقي المنتج النهائي فتستولى عليه الدهشة ويراوغه اليقين

وتتشابه عليه الأمور فيقول (كأنه) هـو.. ولعـل الـسر في انبهـاري بحرافيش محفوظ هو هذه الحالة من الدهشة التي وجـدت نفـسي فيها، هو هذه الحالة من الحيرة بين أرواح أشعر بها، ومواد تتحـرك على نحو مراوغ وفاتن يكاد يصرفني عن روحهـا إن لم أتمـسك بهـا واقبض عليها بقوة.. لعل السر في انبهاري بحـرافيش محفـوظ هـو هذه القدرة الفنية على التورية والهمس والإشارة والتبديل والتنكير التي جعلتني أصيح (كأنهم) هم. ولعل السر في عـدم انبهـاري بــ (أولاد حارتنا) هو هذا الوضـوح الـشديد الـذي جعلنـي وجعـل الكثيرين غيري يتعرفون مباشرة على الشخصيات ويشيرون إلـيهم قائلين إنهم (هم)..

المفتاح

ظل السؤال عن جدوى أبيات الشعر الفارسية يشغلني رغم قراءاتي المتعددة للرواية، وفكرت في أن أتجاسر وألجأ إليه هو نفـسه وأصارحه بخاطر راودني وهو أن كتابته لهذه الأبيـات بلغتهـا كـان عـن قـصد وتعمـد، ولم يكـن محـض تـزيين ولا هـو تعليـق عـلى الأحداث، ولكنها موضوعة بلغتها بقصد الإشارة إلى قناعـة لديـه بأن الحاكم العادل (الفتـوة) لـيس بالـضرورة هـو ذلـك المتفقـه في الدين (الذي يفهـم النـصوص)، ولكنـه ذلـك المنـشغل وجـدانيا

بالدين، المسلم به، القانع بهذه الحالة من الصفاء الروحي التي يشعر بها حين الاستماع للتراتيل والأناشيد..

وقابلت الأستاذ أكثر من مرة في (الأهرام)، ولكنني في كل مرة كنت أراه في هالة من الإكبار تجعلني أحجم عن اقتحامه أو تعكير صفوه، وفي كل مرة كنت اكتفي بالتحية من بعيد وأسعد بردها وابتسامته الودود.. وكان من حسن حظي أن ربطت بيني وبين الفنان الكبير بهجت عثمان صداقة، وكان رحمة الله عليه عضوا بارزا في حرافيش محفوظ.. حدثني كثيرا عنه فحدثته عن خواطري بشأن أبيات الشعر الفارسية، فقال لي: ولماذا لا تسأله.. فقلت له ليتك تقوم عني بهذه المهمة.. وكانت سعادتي غامرة حين طلبني العم بهجت تليفونيا وقال لي بالحرف الواحد: سألته.. يقول لك هذا بالضبط ما قصدته..

والآن وأنا أستعيد قراءة الرواية تمهيدا لكتابة هذه التأملات عن حرافيش محفوظ اكتشفت مدى غفلتي.. فالرجل لم يكن في حاجة للسؤال فقد ضمن الرواية نفسها الإجابة.. رمى لنا بالمفتاح لمن يريد أن يفتح الباب ويفهم..

في المقطع الأول من الحكاية الثانية من الملحمة يقول محفوظ «في ظل العدالة الحنون تطوى آلام كثيرة في زوايا النسيان.. تزدهر

القلوب بالثقة وتمتلئ برحيق التوت.. ويسعد بالألحان من لا يفقـه لها معنى، ولكن هل يتوارى الضياء والسماء صافية».

هكذا وبقدرة فائقة على التورية يلقي نجيب محفـوظ بمفتـاح أساسي لفهم الرواية.. يلقي به في لحظة لا يمكن لأحد أن يتوقعهـا أو ينتبه إليها.. في اللحظة التي ينشغل فيها القـارئ تماما بالـسؤال عن اختفاء عاشور وعما يمكن أن يحدث من بعده.. في هذه اللحظة يلقي بالمفتاح لمن يريد أن يعرف لماذا كتب أبيـات الـشعر بلغتهـا الأعجمية غير المفهومة بالنسبة للقارئ العربي.. ففي ظـل العدالـة الحنون تطوى آلام كثيرة في زوايا النسيان وتزدهـر القلـوب بالثقـة (الإيمان والتسليم) وتمتلئ برحيق التوت ويـسعد بالألحـان مـن لا يفقه لها معني.. إذا تحققت العدالة تحقق سلام الروح فتحقق حسن التلقي للتراتيل والأناشيد.. في ظل العدالة تنتشي الـروح وتـصبح جاهزة للفرح بالآيات والإيمان بها بغض النظر عن الفهـم الـدقيق للمعنى من وراء الكلمات.. في هـذه اللحظـة أدركـت لماذا تخـشع القلوب وتنتشي أرواح العامة عنـد سماع القـرآن الكـريم دون أن يفقهوا كثيرا من المعاني.. في هذه اللحظة أدركت لماذا يصرخون من الأعماق (الله) رغم أن الغالبيـة العظمـى مـنهم لا يفقهـون معنـى الآيات التي تتلى علـيهم.. إنهـا نـشوة الإيـمان.. في هـذه اللحظـة تذكرت عاشور وهو ينصت منتشيا لأناشيد التكية الأعجمية.. هو

لا يفهمها ولكنه يشعر بها.. هو لا يفقه المعاني ولكنه ممتلئ بروح العادل وفي رحاب العدالة المنسابة في وجدانه يزدهر قلبه بالإيمان ويسعد بالألحان وإن لم يفقه لها معنى.. وفي هذه اللحظة أيضا تذكرت عمر بن الخطاب وهو يقف أمام كلمة في آية من آيات القرآن فيسأل نفسه عن معنى كلمة (أبا) فلما لم يجد قال بإيمان عميق: وما على ابن أم عمر لو لم يفهمها..

•• درويش

قبل أن أنتقل إلى الفتوة الثاني في سلالة فتوات الحرافيش (شمس الدين).. أتوقف قليلا أمام الشخصية الضد في الحكاية الأولى.. أعني شخصية (درويش).. درويش هو شقيق الشيخ عفرة زيدان والشيخ عفرة هو والد عاشور بالتبني.. في درويش تتجسد كل معاني الشر، وهو يذكرني على نحو ما بشخصية (إدريس) في (أولاد حارتنا).. ودعونا نسترجع خبراتنا مع استخدامات نجيب محفوظ للأسماء وايحاءاتها.. تأمل معي اسم (إدريس) واسم (إبليس) ثم تأمل معي اسم (درويش) و(الشيطان).. هل يمكننا أن نغفل عن الإيقاع الصوتي وهل يمكننا أن نغفل عن إشارات مثل قيام كلاهما ببناء أوكار الشر في الحارة (البوظة) و(بيت الدعارة).. ومن قبلهما ممارسة قطع

الطريق.. هل يمكننا أن نغفل هذا البعد الواحد للشخصية التي تتمثل فيها كل معاني الشر.. فكما أن إبليس أو (الشيطان) هو شخصية ذات بعد واحد.. هو الشر كله.. فكذلك (إدريس) و(درويش) في (أولاد حارتنا) و(الحرافيش) هما الرمز للشر المطلق.. ولأن الرمز لا يموت فقد كان من المنطقي ألا يموت (درويش) في الحرافيش فقد اختفى من الحارة شأنه في ذلك شأن عاشور.. كلاهما رمزان للخير الذي لا يموت والشر الذي لا يموت أيضا!!

•• شمس الدين..

هو الفتوة الثاني من سلالة الناجي، وقد خايلتني فيه روح علي بن أبي طالب.. وأظنه الشخصية الموحية.. وأكرر وأقول الشخصية الموحية.. فليس (شمس الدين) هو (علي) كما لم يكن (عاشور) هو (عمر).. ولن تكون الشخصيات التالية هي نفس الشخصيات التاريخية ذات الملامح المتشابهة، ولكنها هذه الحالة الرائعة من الاستيحاء لشخصيات في بعض الأحيان، ولفترات كاملة من التاريخ ولاتجاهات فكرية أيضا في أحيان أخر.. هذه الحالة الرائعة من الاستيحاء التي منحت كاتبنا قدرا من الحرية في التنقل دون التزام بالتسلسل التاريخي، فقدم وأخر بما تمليه عليه

الضرورة الفنية وبها يحقق صفاء التعبير عن الفكرة الأساسية للعمل وهي (العدالة).. وعن شمس الدين أرجو الالتفات إلى هذه الإشارات:

•• هو الفتى الوسيم «الذي تدرب على ركوب الخيل واللعب بالعصا والمصارعة».. وهو الفتى الذي تربى على «أن لا قيمة لبريق في هذه الدنيا بالقياس إلى طهارة الضمير وحب الناس وسماع الأناشيد» هو ابن عاشور وهو أيضا «تلميذه ونجيه وصديقه».. ألا يذكرنا شمس الدين على نحو ما بأبي الفتيان (علي).. وهو أيضا قد تربى في بيت النبوة على ألا بريق لهذه الحياة بالقياس إلى طهارة الضمير وحب الناس والاستماع إلى القرآن الكريم.. وألم يكن عليا هو التلميذ الأول لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وألم يكن هو نجيه وصديقه..

إن روح الفتى هي المسيطرة على الشخصية من البداية وحتى النهاية، وما القلق الذي ساور شمس الدين حين اعتراه الكبر إلا قلق على الروح الفتية التي هي أساس وصلب الشخصية.. وما (علي) في وجدان الناس إلا هذه الروح الفتية التي لم يمسها الكبر.. روح الفتى المغامر غير الآبه بالمخاطر.. بداية من نومه في فراش النبي ليلة الهجرة معرضا نفسه للخطر ومرورا بمواقفه الشجاعة

(الفتية) فيما يلي ذلك من مواقف ومعارك خاضها إلى جوار الرسول (ص).

•• ألا تذكرنا مبارزة صحراء المماليك بين الفتوات المرشحين لخلافة عاشور بمبارزة يوم بدر حين برز (علي بن أبي طالب) — وهو فتى صغير السن — لطغاة وصناديد قريش وتحديه لهم في المبارزة، وقولهم له «تنح فأنت صغير وابن لأخينا ولا نريد أن نؤذيك».. ألا يذكرنا هذا ببروز (شمس الدين) للمبارزة وقول (غسان) له وهو يقف أمامه «يعز علي أن أسيء إليك.. أنت غلام يا شمس الدين» ثم صياحه وهو يهجم عليه «عفوك يا عاشور ومعذرة»..

•• يقول عاشور وهو ينظر بحنان إلى ابنه «لن يصلح لها هذا الولد» يعني الفتونة.. ألا يذكرنا هذا القول بقول مماثل قيل في حق علي.. ولست على يقين من أن قائله هو عمر بن الخطاب ولكنني أظنه طلحة بن عبيد الله حين مر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشباب المسلمين وهم يلعبون ويتسامرون فأشار نحو (علي) وقال: ان فيه دعابة.. فعاتبه الرسول بشدة وقال له «لتقاتلنه وأنت ظالم له».. وهذا ما حدث فيما بعد في واقعة الجمل التي دارت بين علي وطلحة.. ثم هل يمكننا أن نغفل هذه الحالة من التردد التي كان

عليها عمر إزاء اختيار أو ترشيح خليفة له.. وهل يمكننا أن نغفل عن هذه المشاعر التي تسربت إلينا جميعا ونحن نقرأ التاريخ بان تردد (عمر) في اختيار (علي) لم يكن تردد الكاره أو الرافض له بقدر ما كان تردد المحب له والمشفق عليه من تبعات القيادة ومسئولية الخلافة.. وهي نفس الشفقة التي عبر عنها عمر حين اقترح عليه بعضهم أن يستخلف من بعده ولده عبد الله بن عمر..

•• ثم انظر إلى استقبال الأعيان والبلطجية لفوز شمس الدين بالفتونة «واستمع شيخ الحارة إلى القصة كما رواها شعلان الأعور بكآبة يتساءل: ترى هل يمتد عهد التجهم والفقر».. ألا يذكرنا هذا باستقبال الأغنياء والمترفين لعهد علي بن أبي طالب.. فقد قالوا إنه عودة لعهد عمر وامتداد لعهد التجهم وكبح الجماح والسيطرة على نوازع الشره وحب المال وبسط النفوذ والتجبر على خلق الله. وربما كان هذا هو السبب الرئيسي وراء الخروج عليه ومناوأته من قبل بني أمية وأغنياء قريش الذين انضموا إليهم طمعا في المزيد من الثراء بعد ان اتسعت رقعة الدولة الإسلامية.

•• ثم انظر إلى المساومة.. يقول شيخ الحارة محمود قطايف نيابة عن الأعيان «انهم يرون أنهم مظلومون كما يرون أنك ورجالك مظلومون أيضا، ويقولون إن منزلة الفتوة الحقيقة بين

الأعيان، وأن الأعيان فضلهم الله درجات على الناس، ولن ينقص ذلك من حق الفقير في العدل».. ثن انظر إلى رد شمس الدين الحاسم «عاشور الناجي لم يمت».. وتذكر معي مواقف المساومة الكثيرة التي جرت مع علي بن أبي طالب من قبل وجهاء قريش والولاة من بني أمية ومن غيرهم ومن بعض رجال الدين أيضا الذي تمسحوا كثيرا وعبر تاريخنا كله في مسألة الدرجات المفضلة عند الله.. تذكر هذا كله وتذكر معي صلابة (علي) في الدفاع عن الصفاء الإسلامي المتمثل في احقاق الحق وإعلاء قيمة العدل وحق الفقراء في العيش الكريم وكبح جماح الأغنياء لصالح الفقراء والتأكيد على قيمة العمل..

•• وإذا كانت للأسماء عند نجيب محفوظ دلالة ومغزى في معظم أعماله.. فقد يكون في اختياره اسم (عجمية) لزوجة شمس الدين دلالته أيضا.. فعلي (الشخصية الموحية) ارتبط على نحو ما ببلاد (العجم) أعني العراق وفارس، وفيها جل شيعته وفيها مات ودفن رضوان الله عليه..

•• على نحو غامض أيضا تذكرت الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية وأنا اقرأ المقطع رقم (٤٦) من حكاية شمس الدين.. إن هذا الصراع راسخ في وجداني كما أظنه في وجدان

الآخرين وكأنه اختبار قوة.. لم يقع في وجداني أبدا أن هذه الحرب بينهما كانت لمحو الآخر أو لا نزال الهزيمة الكاملة به.. لم يكن فيها هذا الغل والإحساس المدمر بالعداء ولكنها وقعت في نفسي موقع المشاجرة بين الأهل.. خناقة قد تسفر عن جرحى وجراح ولكنها وبالقطع لن تسفر عن ذلك النوع الغليظ من العداء المدمر.. كانت مباراة المصارعة بين شمس الدين وولده سليمان اختبار قوة وكذلك فيما أظن كانت حرب (علي) ضد (معاوية).. أو هكذا على الأقل هي مستقرة في وجداني..

•• حضرتني روح (علي) كرم الله وجهه وأنا اقرأ تأملات شمس الدين في آخر أيامه «يفكر فيما فات وما هو آت، ويتذكر الأموات، ويتذكر الأولياء الذين عمروا ألف عام، والخراب الذي يعبث بالأقوياء، وأن الغدر ليس وقفا على ضعف النفس والرجال، وأن هدم زفة مسلحة أيسر ألف مرة من صد ثانية بما لا يقال، وأن البيت يجدد، والزاوية تعمر لا الإنسان، وأن الطرب طلاء قصير الأجل فوق موال الفراق».. ألا تذكرك هذه الحالة من التأمل بتأملات الإمام على وأقواله الحكيمة التي جمعها الشريف الرضي فيما بعد في كتاب نهج البلاغة..

•• وأخيرا انظر معي إلى هذه الحالة من الاندفاع أو فلنقل التهور التي يصف بها ابن عباس عليا رضوان الله عليهما.. يقول

ابن عباس «والله ما رأيت رجلا أطرح لنفسه في متلفة مثل علي رضي الله عنه، ولقد كنت أراه يخرج حاسرا عن رأسه، بيده السيف إلى رجل مدرع فيقتله».. ثم انظر إلى وصف نجيب محفوظ للمعركة الأخيرة في حياة شمس الدين «اندفع شمس الدين بلهفة إلى قلب المعركة، وثب برشاقة أمام ابنه سليمان فصار وجها لوجه مع فتوة العطوف، تفادى من ضربة شديدة ثم وجه ضرباته السريعة في خفة وحذر.. امتلأ بقوة عجيبة لا يدري من أين جاءته فقاتل كخير ما قاتل من قبل.. تجلى مندفعا فياضا ملهما شديد البأس. تضاعف حماس رجاله وتصاعدت جعجعة النبابيت، وثمل بنشوة القتال فخلق المعجزات. أصابته ضربات لم تعجزه ولم توقفه، ونال من خصمه ضربة أخرجته من النضال. وسرعان ما تفشى الخور في رجال العطوف وأخذوا يتقهقرون..»..

إنها روح أبا الفتيان (علي)...

الحب والقضبان..

سألت نفسي عن مغزى اختيار نجيب محفوظ لعنوان (الحب والقضبان) للحكاية الثالثة من حكايات الحرافيش.. أتراه يشير به إلى قصة الحب المستحيل بين الأخ وزوجة أخيه وقضبان التحريم.. وهي القصة التي سيطرت على معظم مقاطع الحكاية الثالثة.. أم

تـراه يـشير بـالعنوان إلى القـصة الأهـم وهـي قـصة حـب الـدنيا والانكباب على ملذاتها، هذا الحب الذي حول (الفتونة) من فعـل عادل فيه أمن وحرية للجميـع إلى فعـل أنـاني يحجـب الفتـوة عـن الناس ويحجبهم عنه فيصبح وهو المأمول في عدله أكثر الناس ظلـما لنفسه وأهله.. يظلم نفسه حين يرتضى لهـا العزلـة خلـف قـضبان المطامع الأهواء وأتباع وحراس أشـداء يحيطونـه مـن كـل جانـب ليمنعوا عنه الناس بحجة حمايته وهم في حقيقة الأمر لا يحمـون إلا مصالحهم التي تتعاظم كلما نجحوا في حجـب الفتـوة عـن شـعبه، وكلما نجحوا في إيهامه بأنهم سبب أمنـه وسـلامته وأن القـوة هـي أساس الملك وليست العدالة.. ظاهر الحكايـة الثالثـة مـن حكايـة الحرافيش هو قصة الحب المستحيل بـين خـضر ورضـوانه زوجـة أخيه بكر.. أما باطنها فهو قـصة انـزلاق الفتـوة (سـليمان شـمس الدين الناجي) إلى حب الذات.. هذا الحب الذي حجبه عن الناس وحاد به عن طريق العدالة وأدى به في النهاية إلى حطام يقول وهـو يموت «انى أودع الدنيا مثل سجين»..

حاز سليمان الفتونة خلفا لوالده العظيم أبـو الفتيـان شـمس الدين.. والمتأمل لروح هذه الشخصية قد تخايله كما خـايلتني روح (معاوية ابن أبي سفيان).. وإليك هذه الإشارات..

•• سنية السمري.. بنت الأكابر.. الثرية ابنة الأثرياء كانت هي بداية التحول في مسيرة سليمان الناجي.. كانت هي الإغراء بحياة الترف والمتعة وبها بدأ سليمان مسيرة الانحدار نحو أصحاب المصالح المترفين بعيدا عن الحرافيش والناس الغلابة المتعطشين دوما للعدالة.. ألا يذكرنا اسم (سنية السمري) على نحو ما (بسورية) و(السامريين).. وفي سوريا كان مقام معاوية، وفيها عرف رغد العيش ونسى خشونة الصحراء.. يقول نجيب محفوظ «بإقامته في دار السمري عرف نعومة المجلس ودفء المرقد وسلاسة الملبس وأبهة الماء الساخن في الحمام الفسيح، والستائر والوسائد والنمارق والتحف والسجاجيد والأبسطة والحلي والجواهر والأهم من ذلك كله الأطعمة الفاخرة واللحوم المتنوعة والحلوى الساحرة. وذهل الفتوة وعجب كيف تسكن هذه الجنة الخلابة في طوايا الحارة المتقشفة».. في هذا النعيم (السمري) تمرغ سليمان الناجي كما تمرغ في نعيم (سورية) معاوية ابن أبي سفيان.. ومن هذا النعيم بدأت مسيرة الفتونة في عهدها الجديد والممتد.. فتونة على الحارة وليس من أجلها..

•• تذكر معي ما نجحت كتب التاريخ في تصويره لنا من مشاعر المسلمين الحانقة على معاوية وتمتعه بالترف إبان فترة ولايته على الشام ثم ما بعدها حين استقرت له الأمور وصار الخليفة..

واقرأ معي هذا المقطع عن سليمان. يقول نجيب محفوظ «ثمة نظرات نافذة تهتك ما يستقر في معدته من أطايب الأطعمة والأشربة، وهمسات تدور حول الجنة الخفية بخاصة من رجاله وأتباعه، وأضطر لأول مرة أن يوزع عليهم في المواسم والأعياد، وفي سرية بالغة نقودا من الإتاوات دون غبن يذكر للفقراء والحرافيش. شعر وهو يفعل ذلك بأنه يخطو الخطوة الأولى في طريق كريه شديد الانحدار وأنه يحيد نوعا ما عن سبيل الناجي. ثم هاله أن ينعم بما ينعم به في دار السمري على حين تعاني فتحية (زوجته الأولى) وبناتها حياتهن الجافة الشاحبة فامتدت يده مرة أخرى إلى الإتاوات وخصهن بنفحات محدودة منحدرا درجة جديدة في الطريق الكريهة».. ألا تذكرنا هذه الخطوات المنحدرة بعيدا عن العدالة بخطوات مماثلة لمعاوية حين أغدق على الأتباع وخص بني أمية بالمزيد من أسباب العز.. ألم تكن هذه هي البداية نحو ملك قائم على القوة والمنفعة لفئة دون باقي الفئات..

•• استحضر معي حالة المساومة والإغراء بالوجاهة والجاه التي تعرض لها شمس الدين وتذكر معي رفضه القاطع «عاشور لم يمت».. وانظر معي إلى حالة الاسترخاء اللذيذ التي يشعر بها سليمان وهو يطمئن إلى ما يقوله الوجهاء من حوله وهم يدفعونه دفعا إلى الطريق الذي يريدونه له «الفتوة ورجاله من الوجهاء أو

هكذا ينبغي أن يكون» و«خلق الفتوة ليكون وجيها وليلعنني الله ان كنت كاذبا أو مغرضا فيما أقول».. تذكر معي موقف (علي) من هذه المساومات وتذكر معي مواقف (معاوية) منها..

•• «زاد من الهبات لنفسه ولأعوانه فمضت ترتفع نحو منازل الوجهاء حتى هجروا في النهاية حرفهم البسيطة أو أهملوها. وتناقصت أنصبة الفقراء والحرافيش وإن لم يحرموا من الهبات. تغير وجهه الحارة المشرق وأخذ الناس يتساءلون أين عهد عاشور.. أين إخلاص شمس الدين.. وتحفز الأتباع للمتسائلين وأرهبوا الساخطين».. استحضر معي حال المسلمين في عهد معاوية ومن جاء من بعده من بني أمية وتذكر معي ما تعرضوا له من إرهاب وقمع من قبل ولاة بني أمية.. تذكر معي الحجاج ابن يوسف الثقفي ومن هم على شاكلته من الولاة أتباع خلفاء بني أمية، وما لاقاه المسلمون الحالمون بعدل (عمر) وإخلاص (علي) من إرهاب، وعنف شديد على يد هذه العصابة التي جعلت من أنظمة الحكم أنظمة للتسلط بعد أن كانت ملاذا للمتعطشين إلى العدل..

•• ثم انظر معي إلى هذا الوصف لسليمان واستحضر معي إن شئت وصفا مشابها له لمعاوية في أخريات أيامه «تغيرت صورة

العملاق ومنظره، ارتدى العمامة والعباءة واستقل الكارتة في مشاويره، نسى نفسه، ثمل حتى اصابه خمار الانحراف ومضى يمتلئ بالدهن حتى صار وجهه مثل قبة المئذنة وتدلى منه لغد مثل جراب الحاوي».. و.. «انتفخت كرشه وتدلت عجيزته ومن افراطه في الطعام كان يغالبه النوم وهو متربع على أريكته في القهوة»..

ألم يكن معاوية هو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب وأول من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة وأول من تنعم في مأكله ومشربه وملبسه.. هكذا تصفه كتب التاريخ.. وهكذا تصفه أيضا في أخريات أيامه وقد صار ضخما عظيم الجثة يعلوه الدهن..

•• ثم انظر إلى هذه الحالة من الندم عند مقابلة الموت يقول سليمان الناجي لأهله وقد تجمعوا حوله «الدنيا لا تساوي شيئاً حتى يهبها الإنسان روحه» ويقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة «اني أودع الدنيا مثل سجين».. موقف مشابه تماما لما حدث مع معاوية حين حين حضره الموت فقد جمع أهله من حوله وهو يقول «هذه نفسي قد خرجت من قدمى فردوها على ان استطعتم» ثم يقول «من تغره الدنيا بعدي»..

• وأخيرا.. يصف نجيب محفوظ عهد سليمان بأنه كان بداية تحول الفتونة إلى سابق عهدها قبل عاشور «فتونه على الحارة لا لها، ولا خدمة تؤديها إلا خدمة الدفاع ضد الفتوات الآخرين».. وأظن أن الأمر ذاته مستقر في وجدان الغالبية العظمى من حرافيش المسلمين.. مستقر في وجداننا أن عهد معاوية كان بداية تحول السلطة إلى تسلط على الناس وليس لهم.. وغدت خدمتها الوحيدة هي الدفاع عن تخوم العالم الإسلامي وقتذاك ضد الأعداء الخارجين.. ومن المؤسف حقا أن هذه المهمة الوحيدة الباقية من مهام الفتونة راحت تتضاءل مع مرور الزمن.. فالقهر الداخلي كان لابد أن يتولد عنه ضعف خارجي.. والحارة غير الآمنة بالعدالة في الداخل لن تأمن عدوان الطامعين من الخارج.. وهكذا عشنا نحن الحرافيش قرونا تتناوشنا أنياب الفتوات الظالمين في الداخل والفتوات الطامعين من الخارج.. لنا الله..

المطارد

بداية من الحكاية الرابعة من حكايات الحرافيش نحن أمام حالة رائعة من الاستلهام وعلى نطاق واسع.. استلهام لشخصيات، ومذاهب دينية، وأزمنة تاريخية، والرابط بين الجميع هو البحث عن حلم الحارة – حلمنا – في عدالة تشمل الجميع وعن فتوة تتحقق به الآمال..

في الحكاية الرابعة يقص علينا نجيب محفوظ حكاية سماحة الناجي (المطارد) هو ابن بكر بن سليمان بن شمس الدين بن عاشور.. ولد في أسرة ميسورة يدير تجارتها عمه خضر، وينشغل بأمورها شقيقه رضوان.. أما سماحة فقد بدا أنه مشكلة؟!».

في المقطع الثاني من الحكاية الرابعة يقول محفوظ «كان سماحة متوسط الطول، فائض الحيوية، قوى العضلات، في وجهه ملامح شعبية من وجه جده سليمان، تنبسط تحت رأس نبيل وبشرة صافية تذكران بأمه رضوانة.. أتم تعليمه بالكتاب ، واكتسب من عالم الفضيلة شهامة وكرما وبعض الورع، ولكنه ولع بمغامرة الشباب، والجسارة، وعبادة البطولة».

نحن إذن أمام مشروع لفتوة جديدة من آل الناجي بعد جيل كامل خلا منهم.. يلحظ العم خضر ملامح الفتونة في سماحة فينتابه القلق، ويحاول استمالة ابن أخيه إلى التجارة اتقاء للمخاطر فيجد الرد الحاسم من الفتى «لم اخلق للتجارة يا عمي».. ويقول «رأسي ملئ بالآمال».. وهاهي روح الفتونة تعلن عن نفسها «سوف يرجع عهد الناجي ذات يوم إلى أصله».. انها الروح الطموح المتشبثة بالجذور، الحالمة بالعودة إلى نقاء الأيام الأول..

سماحة (المطارد) ذكرني على نحو غريب بالمذهب (المطارد) عبر تاريخنا كله.. وأظن أن المذهب الشيعي هو الملهم لشخصية سماحة ففيه تتجسد معالمه، وهذه إشارات:

•• يصف نجيب محفوظ بطل الحكاية الرابعة (سماحة) بالشهامة والكرم والولع بمغامرة الشباب، والجسارة وعبادة البطولة.. وهي صفات لا يمكن لأحد أن ينكرها على غير أتباع المذهب الشيعي كما لا يمكن لأحد أيضا أن ينكر تعظيم الشيعة لهذه الصفات أكثر من غيرهم.. ودعنا نتذكر الروح الجسورة وعبادة البطولة التي جعلت حفنة صغيرة من اتباع (الحسين) قادرة على التصدي لجيش (يزيد) الجرّار.. ودعنا نتذكر أيضا (الروح الجسورة وعبادة البطولة) التي تبدت في شخصية معاصرة أعادت إلى الخواطر ذكريات الأمس.. أعني بذلك بالطبع شخصية حسن نصر الله زعيم حزب الله (الشيعي) في لبنان أثناء مواجهته الأخيرة لفتوات العصر (إسرائيل وامريكا)..

• انظر معي إلى المزاج الحزين لسماحة الناجي «يتقطع قلبه على الشهداء» واستحضر معي مشاهد الأحزان في احتفالات الشيعة بالشهداء من آل البيت.. ولا أظن أن عبارات مثل «يا

حسين يا سيد الشهداء» و«نذر خروف لآل البيت» قد جاءت في هذا الفصل من الرواية عفو الخاطر.. فكلها عبارات ذات صلة بالشيعة.. كما لا أظن أن اختيار محفوظ لاسم (سماحة) إلا عن قصد وإشارة إلى الحالة الموحية (الشيعة).. فكلمة سماحة لها لديهم دلالة وهي عندهم لقب ديني محترم.. ولا أظن أن اختيار محفوظ لأسماء مثل (دجلة) و(الفسخاني) وهما من أفراد عصابة هذه الفترة إلا إشارات.. (دجلة) هو نهر العراق التي شهدت فصولا من القربى والعداء بين العباسيين والشيعة.. و(الفسخاني) يوحي صوتا وشكلا باسم (السفاح) والسفاح هو (أبو العباس بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي) وهو أول الخلفاء العباسيين وفي بداية عصره كان الوفاق مع الشيعة وفي نهايته كانت القطيعة وبدأ العداء.

•• يصفه نجيب محفوظ بـ(الحالم الكبير).. الحالم بالفتونة والحكم والعدالة للجميع على نهج الناجي العظيم.. هكذا هو سماحة ومن أجل حلمه عانى ولاحقته المطاردة.. وهكذا هو المذهب الشيعي الحالم بالعودة إلى العدل في صورته الباهرة الأولى.. وهكذا أيضا عانى الشيعة طوال تاريخنا من المطاردة على يد الدولة الأموية ثم العباسية وما تلا ذلك من دول ولم يهنأ الشيعة

بالاستقرار إلا بضع سنوات إبان حكم الفاطميين لمصر.. ظل الشيعة هم المطاردين عبر تاريخنا كله وكانوا دوما هم الحالمين الكبار.

•• في سبيل تحقيق الهدف الحلم لا بأس من التظاهر بغير ما في الباطن.. لا بأس من التخفي.. لا بأس من (التقية).. والعمل في الخفاء استعدادا لليوم الموعود وبمبدأ التقية (الشيعي) عمل سماحة الناجي بداية من إظهار انضمامه إلى عصابة الفللي انتظاراً للحظة الوثوب على الفتونة، وانتزاعها منه، وإعادتها إلى أصحابها الحقيقيين العادلين من آل الناجي.. وقد ذكرني على نحو ما انضمام سماحة إلى عصابة الفللي بالتحالف بين الشيعة والعباسيين في مبتدأ أمر الدولة العباسية، فالمستقر في وجداني – وأظنه مستقرا في وجدان غيري – أن هذا التحالف كان من جانب الشيعة وسيلة للوصول إلى سدة الحكم بعد القضاء على العدو المشترك (الدولة الأموية) بينما كان التحالف من جانب العباسيين من قبيل الضم تحت الجناح واحكام السيطرة على منافس قوى بجعله قريبا وتحت المراقبة.. يقول رضوان لشقيقه سماحة يحذره من خطورة الانضمام إلى عصابة الفللي «اقلع عن طموحك.. للفللي مائة عين عليك، ولقد طواك تحت جناحيه حتى لا تغيب عنه حركة من حركاتك»..

ويقول له «وجود مثلك في العصابة مثار للمخاوف حتى إذا لم تمس المخاوف الفللي نفسه فإنها خليقـه بـأن تجتـاح الأتبـاع الطمـوحين المتربصين بالمستقبل». وهذا ما حدث فعلا مع سماحة فقد أوقع بـه الفللي في جريمة قتل لم يرتكبها وفر على أثرها مطـاردا.. وهـذا مـا حدث أيضا بين العباسيين والشيعة.. فقد انقلبـت الأمـور وصـار حلفاء الأمس أعداء اليوم ونال الشيعة على يد العباسيين من الظلم والقهر ما لم يلقوه على يد غيرهم بمن فيهم الألداء من بنـي أميـة.. ودعنا نسترجع ما لاقاه الـشيعة مـن اضـطهاد عـلى يـد العباسـيين ودعنا نتوقف أيضاً عند هذا الوصف لما حدث لآل الناجي على يـد (الفللي) بعد الانقلاب عليه «وعانى آل الناجي شر معاملة.. حتـى الفقراء والحرافيش منهم لم يسلموا من الأذى.. ثمة غلـمان قـذفوا خضر بالطين، نهبت عربة لـه محملـة بـالغلال، كـانوا يلجـأون إلى بيوتهم مع المساء»..

•• من (التقية) أيضا ما لجأ إليه سماحة مـن تخـف في أشـكال وأزياء وأسماء مختلفة اتقـاء للوقـوع في يـد الفلـلي وانتظـارا لليـوم الموعود.. فهو (سماحة) وهو (بدر الصعيدي) تـاجر الغـلال وهـو البائع السريح «يجول بين القرى مرسلا لحيتـه وشـاربه مخفيـا عينـه اليسرى بزعم العور، وظل يسجل مرور الأيـام في دفـتره الـسري،

ويسجل أيضا أعمار أولاده رمانة وقرة ووحيد.. وتركزت أوقات فراغه في تذكر أسرته، محاسن وأولادها، وفي أعقاب الجهد والعناء، قبيل النوم يتعزى بالأحلام، الحلم باليوم الموعود. يوم النجاة من المشنقة والعودة إلى الأهل، يوم يرجع إلى حارته مشهراً عصا التأديب، باعثا من ظلمات الحاضر عهد الناجي بعدله المرموق».. و«عاش وحيدا.. بل عاش في ظل أطياف متجسدة لا تبرحه.. أطياف الظلم والحنان والحرمان والخوف المستمر من انكشاف أمره»..

لاحظ معي هذه الفقرة المفعمة بالإشارات.. فهذه الحالة من التوحد والتعزي بالأحلام والعيش في ظل أطياف متجسدة والحلم باليوم الموعود، يوم العودة والبعث للعهد العظيم.. هذه الحالة التي عاشها سماحة هي نفس الحالة التي عاشها الشيعة على مر تاريخنا كله.. وانظر معي إلى حرصه على تسجيل الأيام وأحداثها في (دفتر سري).. ألا يذكرك (دفتر سماحة السري) بكتب وكتابات الشيعة (الاسماعيلية على وجه الخصوص) تلك الكتابات التي كانت ومازالت سرية لا يطلع عليها غيرهم.. وألا تذكرك عناية سماحة بتسجيل أسماء وتواريخ ميلاد سلالة الناجي بهذه العناية الفائقة التي يوليها الشيعة بشجرة النسب الشريف للأئمة وآل البيت.

•• كيف اختفى سماحة (المطارد)؟! - في الممر.. «ممر الأبدية المترعة بالآمال الملتهبة والآمال المتجددة».. ألا يذكرك (الممر) الذي اختفى فيه سماحة بـ (السرداب) الذي اختفى فيه الإمام الغائب عند الشيعة (محمد بن اسماعيل)؟!.. ألا ترى معي شبها بين (الممر) و(السرادب) وهاتين الحالتين من الاختفاء.. ثم ألا ترى معي أن الحلم بعودة (سماحة) الغائب يتشابه كثيراً مع الحلم بعودة (الإمام الغائب) الذي سيملأ الأرض عدلا..

•• وكما طال غياب (الإمام الغائب) طال غياب (سماحة).. وكما ستكون عودة الإمام مفاجأة للجميع كانت عودة سماحة مفاجأة.. فبعد فصل كامل، ونحن في غاية الشغل بالأحداث الختامية للحكاية الخامسة (قرة عيني) يفاجئنا الفنان المبدع بعودة الغائب.. وانظر معي إلى هيئة ولباس سماحة العائد واستحضر معي هيئة ولباس الأئمة ورجال الدين الشيعة «وذات صباح جاء الحارة رجل غريب.. معتم بعمامة سوداء، متلفع بعباءة أرجوانية»..

....

....

ماذا يبقى لنا نحن الحرافيش من التاريخ سوى المشاعر.. نحن لا نحفظ التواريخ باليوم والشهر والسنة، وقد تختلط علينا

الأسماء والأماكن، وقد نقدم حدثا على حدث.. نلخص عصورا كاملة في شخصية ونلخص الشخصية في حدث واحد هو الأكثر تأثيرا في أرواحنا.. فعلى سبيل المثال يتلخص لدينا العصر الأيوبي في شخصية صلاح الدين ويتلخص لدينا صلاح الدين في حدث هو حروبه ضد الصليبيين وتتلخص هذه الحروب في حرب واحدة هي معركة حطين.. لماذا؟ لأن هذا الحدث هو الأكثر تأثيرا في أرواحنا.. يشعرنا بالعزة والقوة والقدرة على النصر.. نحن نحكم ونفكر بعواطفنا ولا نلتفت كثيرا إلى التفاصيل.. نطلق أحكاما عامة قد يجافيها المنطق وقد تفتقر إلى التعقل، ولكنها مفعمة بالمشاعر الجياشة والشوق الصادق إلى المثل.. نحن كما يصفنا نجيب محفوظ على لسان محمد توكل شيخ الحارة «يؤمنون بأن الخير بدأ وانتهى في ماض غامض، ولا يفرقون بين الحقيقة والحلم، يفكرون بعواطفهم، ويحكمون على الأشياء بتعاستهم، ويصدقون أن الملائكة هجرت سماواتها ذات يوم لتحمي هذا أو ذاك من أجدادهم».

التاريخ لدينا يتلخص في الأثر الروحي الذي تتركه فينا الفترات الزمنية والشخصيات.. يتلخص في الانطباع الذي نكونه فيرسخ في الوجدان ونطلق بناء عليه حكمنا العام.. فالعصر

العباسي يتلخص لدينا في هارون الرشيد والجاه العظيم والأموال والجواري وبدايات الصراع داخل البيت الحاكم (صراع الأمين والمأمون).. والعصر الفاطمي يتلخص لدينا في انطباع راسخ بأنه العصر (الزاهر) عصر العز والجمال والدندشة.. وحين نذكر (الحاكم بأمر الله) نلخصه في حكم انطباعي بأنه الحاكم (المجنون) الذي حرم على الناس أكل الملوخية.. وحين تحوم في الذاكرة نهايات العصر العباسي لا نكاد نقبض على روح لشخصية واحدة فهم (أشباح) في عالم شبحي غامض وحين نذكر سيدنا يوسف نلخصه في الولد الجميل المظلوم من إخوته وربما نذكر حكايته مع الملكة الفاتنة وكيف همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وألفيا سيدها لدى الباب.. كما قد نذكر قدرته على تفسير الأحلام والبقرات السمان والعجاف وعمله خازنا للغلال..

وعلى هذا الأثر الروحي للأزمنة والشخصيات كان عمل نجيب محفوظ في الحكايات التالية من الحرافيش (قرة عيني) و(شهد الملكة) و(جلال صاحبة الجلالة) و(الأشباح) و(فتح الباب).. أما الحكاية العاشرة والأخيرة فلها شأن آخر.. شأن عظيم..

•• قرة عيني:

يفتتح نجيب محفوظ الحكاية الخامسة من حكايات الحرافيش بالاختفاء الجديد للمطارد سماحة الناجي، ويختتمها بعودته وقد تحقق حلمه باعتلاء ابنه (وحيد) كرسي الفتونة.. وبين الاختفاء والعودة تدور فصول الصراع داخل البيت الحاكم.. بيت آل الناجي.. ذلك البيت الذي أصبح ثريا يملك تجارة مربحة موروثة عن خضر الناجي، ويقوم على إدارتها الشقيقين (قرة عيني) و(رمانة) بينما عرف الشقيق الثالث (وحيد) طريقه نحو الفتونة فانتزعها من يد (الفسخاني) بعد حلم عجيب رأي فيه طيف جده العظيم عاشور.. وهكذا عادت الفتونة إلى آل الناجي.. بعد جيلين (جيل بكر وخضر ثم جيل سماحة)..

يقول محفوظ «عصفت الدهشة بالحارة.. خفقت قلوب الحرافيش بالأمل. اضطربت خواطر الوجهاء بالخوف حلمت أسرة الناجي بالعرش المضيء ومضى وحيد ينوه بالحلم الذي رآه، والمعجزة التي أحدثتها يده المسحورة، والثقة الخارقة في النصر التي هونت عليه مجابهة الموت، وسرعان ما أحس حرارة الأمل المتطلعة إليه وبرودة الخوف المتوجسة منه، ولكنه آثر التمهل والتدبر، فترك الأمور تسير في طريقها المعهود عدا نفحات جاد بها على المعسرين

والحرافيش» نحن إذن أمام جيل جديدي من آل الناجي.. جيل مختلف.. «يسأله عم رضوان: متى تحقق حلم أبيك الغائب؟ فيجيب عليه بحذر: خطوة.. خطوة وإلا أفلت زمام العصابة من يدي.. رحم الله امرأً عرف قدر نفسه».. بوادر خيبة الأمل التي سرعان ما تتحول إلى واقع بغيض.. «كلما مضى يوم تذوق جلال الفتونة ونعمة الثروة ومداهنة الوجهاء وأخذ يستسلم لتيار الإغراء، فتقوى في نفسه نوازع الأنانية، وتضعف أحلام البطولة والعهد وإذا به يشرع في إنشاء دار خاصة به، ويتمتع بكل جميل وطيب في الحياة، ويولع أكثر بالبوظة والمخدرات، ويتمادى في ممارسة شذوذه حتى خرج به من السر إلى العلانية حتى قال رضوان الناجي (عمه) لزوجته أنيسة: أليس الأفضل أن يكون الوغد من غيرنا.. وتذكر الحرافيش تدهور سليمان الناجي فقالوا «إن الشر وحده هو ما يروث في آل الناجي».

على نحو ما ذكرتني شخصية (وحيد) بشخصيات مشابهة في تاريخنا، فما أكثر حكايات المتجبرين والمنحرفين الذين اعتلوا كراسي الحكم عبر تاريخنا المجيد وما أقل العادلين.. ولعل الشخصية الأقرب لشخصية (وحيد) هي شخصية (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) وهو الخليفة السادس من خلفاء بني أمية.. لاحظ

التشابه في الإيقاع الصوتي لاسم (وحيد) و(الوليد).. ثم لاحظ الاستخفاف بقيمة العدل والمجاهرة بالفسق والولع بالمتع الحسية في الشخصيتين.. (وحيد) أشتهر بفسقه وجاهر به، و(الوليد) تلقبه كتب التاريخ بـ (الفاسق) وتنسب إليه ما يشبه الأساطير.. فيقال أنه واقع جارية له وهو سكران وحين حل ميقات الصلاة حلف ألا يصلي بالمسلمين إلا هي، فلبست ثيابه وصلت بالناس وهي سكرى جُنب، ويقال أيضا أن خليفة المسلمين (الوليد) اصطنع في قصره بركة من الخمر وكان إذا طرب ألقى بنفسه فيها وظل يشرب منها حتى يبين النقص في أطرافها..

لا أمل إذن في (وحيد) على الرغم من انتمائه الأصيل لآل الناجي وسرعان ما ينفض نجيب محفوظ يديه من هذا الفتوة الكريه ليخصص بقية الحكاية الخامسة لما هو أشد خطراً على بيت الناجي وعلى الحرافيش الآملين فيه..

تدور معظم المقاطع الثمانية والخمسين من الحكاية الخامسة حول الصراع داخل بيت الناجي بين الأخوين (قرة عيني) و(رمانة) ومن خلفهما زوجتان وشقيقتان أيضا (عزيزة ورئيفة) وكلتاهما قامت بدور المسعر للصراع بين الأخوين حتى قتل

(رمانة) أخيه (قرة عيني) ليستأثر بالمال والجاه الموروث عن آل الناجي..

وفي الحكاية الخامسة ملامح من الصراع الذي دار بين (محمد الأمين) و(عبد الله المأمون) إبنا الخليفة العباسي الأشهر هارون الرشيد.. صراع لم تشفع فيه الأخوة ولم تردع الأخ عن قتل أخيه في سبيل السلطة والجاه والمال.. وكما قتل (رمانة) أخاه (قرة) قتل (المأمون) أخيه (الأمين).. كلاهما افتتح مائدة الدم العائلي فتنوعت صوره وأشكاله في (آل العباس) وفي (آل الناجي).. كلاهما بدأ الملحمة العائلية التي انتهت بأبناء يقتلون آباءهم في العائلتين على نحو ما سنرى..

وإذا كنا قد اعتدنا الانتباه لأسماء الشخصيات عند نجيب محفوظ وما تحمله من دلالة فدعني أضع أمامك هذا النص للكسائي وكان هو القائم على تعليم الأخوين (الأمين والمأمون).. يقول الكسائي: أتتني ذات يوم جارية زبيدة (أم الأمين) وقالت يا كسائي إن السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتي إليك أن ترفق بابني محمد فإنه (قرة عيني) وثمرة فؤادي وأنا أرق عليه رقة شديدة.

ترى هل أوحى هذا النص لأديبنا الكبير باسم (قرة عيني).. ترى هل في (الأمين) ملامح من (قرة عيني).. ربما.. ترى هل في الحكاية الخامسة روح وملامح من هذه الفترة التاريخية التي عشناها نحن الحرافيش.. أظن ذلك..

•• شهد الملكة:

فتوة الحكاية الخامسة من حكايات ملحمة الحرافيش امرأة ولكنها ليست ككل النساء.. هي من آل الناجي، فتوة من بيت فتونة، وإذا كان سلاح فتوات آل الناجي هو «النبوت» فسلاحها ليس أقل خطرا.. سلاحها الجمال الذي يطيح بالرؤوس كما تطيح بها النبابيت.. جمال مسيطر لا سبيل لمقاومته.. جمال انحنت له رؤوس كل الفتوات.. يجمل نجيب محفوظ وصفها في عبارة موجزة «انها روح الجمال الفتاك»..

ولدت زهيرة في بيت فقير من بيوت آل الناجي ومرت حياتها كما تمر أطوار حياة ملكات النحل.. بعد وفاة أبيها التحقت بالخدمة في بيت عزيز الناجي وتزوجت من عبد ربه الفران فشاركته حياته الخشنة ورضخت لأمره فعملت بائعة تسرح بالملبن وبراغيث الست و«بانطلاقها إلى الطريق اكتشفت ذاتها وتنبهت إلى

سحرها وقوتها».. «الأعين تلتهمها، الألسنة تتفنن بالثناء عليها، منظرها يبعث السحر ويوجد الحركة.. إنها قوية مدللة بالطبيعة والناس وهي تقابل الغزل بالترفع والكبرياء وتزداد تيها وثقة بالنفس».. ها هي تكتشف ذاتها وها هي تنتقل لطور آخر «عاشت في دوامة من التمرد والتحفز.. على الحياة أن تغير وجهها.. القوة كفيلة بأن تغير أبعاد الكون.. كل دقيقة تمر بلا تغيير انتصار للذل والتعاسة».. وها هي روح الثورة والفتونة تطل.. تحيل حياة زوجها (عبد ربه الفران) إلى جحيم وتتطلع إلى الدنيا المليئة بمن هم أجدر بها منه.. ولم لا وهم كثر.. التاجر الثري «محمد أنور» والفتوة «نوح الغراب» ومأمور القسم «فؤاد عبد التواب» ومعهم جميعا كبير عائلة الناجي نفسه «عزيز»..

«انها تطمح إلى اكتساب حق وفي سبيل ذلك وطئت قلبها بلا رحمة. في سبيل ذلك تحس أحيانا بجيشان الجنون السامي في قدح الخمر المقدسة.. وتراءى لها عزيز سماحة الناجي في حالة حلم وردي ولم تدري كيف يمكن أن يتجسد لها في عالم الحقيقة هل يمكن ذات يوم سحري أن تصبح ضرة لألفت هانم، وشبه ابنة شرعية لعزيزة هانم؟! هل يمكن أن تتسلطن يوما في دار فاخرة وتستقل الدوكار ذى الجرس الرنان»..

تهاوى من حولها الكبار، واشتعلت الأحداث بحرارة جمالها، وروحهـا الوثابـة و«آمنـت بأنهـا الفتـوة الحقيقـي وراء كـل الأحداث».. وعاشت زهيرة الطور الثالث من أطوار حياة الملكة.. شهدها عزيز صعب المنال، وقوتها تطيح بالرجال.. في سبيلها يراق المال والدم وتتهاوى أمامها حصون العز والجاه والقـوة.. تعـيش فتوة وتموت ولكن ليس كما تموت النساء في خدرها.. انها تموت كما يموت الفتوات من الرجال... بالنبوت وعلى الملأ..

الآن أتذكر هذه اللحظة التي كانـت سـببا في عـشقي لهـذه الرواية.. اللحظـة التـي أهاجـت روحـي وأيقظـت كـل حـواسي وجعلتني أقفز إلى الفصل الأخير ثم أعود لقراءة الرواية من أولها.. انها لحظة مصرع زهيرة.. قبلها كنت أتابع الفصول واقرأ حكايـات لفتوات في حـارة مـصرية حتـى أتـاني مـصرع زهـيرة ليهـزني مـن الأعماق ويثير بداخلي الأسئلة.. من هذه «السيدة؟».. ما كـل هـذا الفن والجمال؟!

ما هذه الومضات التي تخايلني في الأعماق؟! هل انت امـرأة ككل النساء أم أنت مصر؟! مصر الفاطمية عـلى وجـه التحديـد.. هذا الجمال وهذه الدندشة تذكرني بمصر الفاطمية.. وهذا التحفـز

للاستقلال والتحرر يذكرني بها.. وهذا التكالب عليك يا زهيرة من الجميع يذكرني على نحو غامض بتكالب كل القوى عليك يا مصر من قبل وأثناء ومن بعد فترة الحكم الفاطمي.. خمسة من الكبار تصارعوا عليك يا زهيرة (عبد ربه الفران) و(محمد أنور) و(نوح الغراب) و(فؤاد عبد التواب) و(عزيز).. وخمسة من الكبار تصارعوا يا مصر في ذلك الوقت: (الطولونيين) و(الأخشيديين) و(العباسيين) و(الصليبيين) و(الفاطميين).. انظر إلى صفات (عبد ربه الفران) أفطس الأنف وقارن بينه وبين (كافور الأخشيد).. و(محمد أنور) الثري العايق، وقارن بينه وبين (أحمد بن طولون).. و(نوح الغراب) وقارن بينه وبين (الدولة العباسية) فتوة ذلك الوقت فقد كان شعارها السواد الذي في الغراب النوحي.. وانظر إلى (فؤاد عبد التواب) مأمور القسم ودخوله الحارة وسط مظاهرة عسكرية ضخمة ومرفوضة من قبل الحرافيش وتذكر معي محاولات التدخل الخارجي من قبل (الصليبيين) التي بدأت في العصر الفاطمي.. انتبه إلى اسم (فؤاد) وتذكر معي اسم (قلب الأسد).. ثم انظر أخيرا إلى (عزيز) ثري آل الناجي تذكر معي (المعز لدين الله الفاطمي).. تذكر ذهب المعز وسيفه..

ثم ان اسمك يا زهيرة لا يمكن أن يكون قد جاء لأديبنا الكبير هكذا عفو الخاطر.. ألا يمكن أن يشير الاسم إلى مصر الفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء؟!..

وهكذا انفجرت في رأسي الأسئلة التي قادتني إلى إعادة قراءة الرواية.. وتأمل ما فيها من فن وجمال ومن قدرة فذة على استلهام روح وتاريخ الأمة..

•• جلال صاحب الجلالة:

• جلال هو بطل الحكاية السابعة من حكايات ملحمة الحرافيش.. به عادت الفتونة إلى (آل الناجي) ولكنها فتونة من نوع فريد.. فتونة ليست على الحارة ولا هي لها.. ليست على الحرافيش ولا هي لهم.. فتونة في المطلق.. تواجه المستحيل وتتصادم مع عدو ليس ككل الأعداء.. عدو شديد البأس.. فتوة لم يسلم من نبوته أحد..

تلقى جلال الضربة الأولى من عدوه في أعز الناس لديه.. في أمه (زهيرة) التي «هي مبدعته ومهده وحبه، إنها روحه ودمه.. صورتها مطبوعة على وجهه.. صوتها يشدو في أذنه».. رأى جلال

طيف عدوه بين عظام رأس أمه المهشمة، ولمح وهو لا يـزال طفـلا ملامح مرعبة لفتوة هائل القوة وقد انعكس وجهه على سطح بركة الدم.. ضربـة مهولـة في صـميم روح الطفـل جعلتـه يقـضي بقيـة طفولته وشطرا من شبابه في بحث دائم عن هـذا الفتـوة المرعـب.. يسأل «ما الموت؟!.. لماذا المـوت؟!».. أسـئلة لم يعثـر عـلى إجابـة شافية لها من أحد.. فكظم غيظه وواصل حياته حتى فاجـأه نفـس الفتوة بضربة أخرى أشد وفي الصميم أيضا.. في أعز الناس وأملـه في حياة مستقرة هادئة.. كانت الضربة في الحبيبة (قمر) وقبـل أيـام قليلة من إتمام الـزواج.. «شـعر جـلال بـأن كائنـا خرافيـا يحـل في جسده.. انه يملك حاسة جديدة ويرى عالمـا غريبـا.. عقلـه يفكـر بقوانين غير مألوفة وها هي الحقيقة تكشف عـن وجههـا.. رنـا إلى الجثة المسجاة طويلا.. طـوى الغطـاء عـن الوجـه.. إنـه ذكـرى لا حقيقة.. موجود وغير موجـود.. سـاكن.. بعيـد منفـصل عنـه لا يمكن أن يقطع.. غريب كل الغرابة، ينكـر بـبرود أي معرفـة لـه.. متعال متعلق بالغيـب.. غـائص في المجهـول.. مـستحيل غـامض مندفع في السفر.. خائن، سافر، قـاس، معـذب، محـير، مخيـف، لا نهائي، وحيد.. وغمغم بذهول وتحد: كلا..».. لحظة فارقـة أعلـن

فيها جلال الرفض لهيمنة الفتوة الرهيب واستهتاره بالآمال .. وسرعان ما تطور الرفض إلى مواجهة حاسمة في سبيلها فلتتهاوى كل حصون التعقل ولتفتح كل آفاق الجنون..

يمشي في الشوارع ذاهلا وكأنه يبحث عنه ويسأله سائل «لا ترى يا معلم جلال إلا ذاهبا أو آيبا عم تبحث؟.. فيجيبه بازدراء أجد ما لا أبحث عنه وابحث عما لا أجد».. إجابة فلسفية من شاب من البشر قرر المواجهة ضد الفتوة الذي أضناه وأضنى عقول كل البشر.. واندفع جلال في المواجهة لا يبغي سواه، ولا يرتضى بغير قهره.. يخوض المعركة ضد (سمكة العلاج) لا طمعا في الفتونة على الحارة والبشر، ولكن تحديا للفتوة الأكبر «الموت» ولأحد أعوانه المنفذين لأوامره.. وحين يعتلي جلال عرش الفتونة على الحارة لا يولي اهتماما لآمال وأحلام الحرافيش في العدالة فليس من أجلهم ولا من أجل العدالة يخوض المعارك.. ولكنه يخوضها لغرض شخصي بحت.. لثأر شخصي ضد الفتوة الرهيب وقد صمم على قهره والتفوق عليه ولو بمؤاخاة الجن والسجن الانفرادي لمدة عام كامل.. سيتفوق عليه بكل ما يقدر عليه من جنون..

وينفذ جلال مطالب الجان بالكامل، ويخرج إلى الدنيا مزهوا بنصره على عدوه ليعتلي عرش الخلود الذي لم يعتليه أحد من قبله.. ولكن أنى له النصر على عدو لا يعرف الهزيمة؟!.. عدو ماكر يجيد التخفي وإخفاء نبوته حتى تحين اللحظة التي يستله فيها من بين طيات الغيب ويوجه به الضربة التي لا تخيب.. ويتلقى جلال الضربة فيترنح ويظنها مجرد وعكة شراب، وحين تصارحه العشيقة الخئون بأنها سقته من السم ما يكفي لقتل فيل، وبأن حبيب القلب يموت.. يصرخ رافضا الهزيمة «جلال لا يموت.. الموت مات يا جاهلة».. انه يرفض أن يصدق.. يقاوم حتى الرمق الأخير.. «وعثر في تخبطه بجسم بارد.. انه حوض الدواب اجتاحته فرحة النجاة.. انحنى فوق حافة الحوض فتهاوى إلى أسفل.. مد ذراعيه فغرق في الماء.. لامست شفتاه الماء المشبع بالعلف.. شرب بنهم.. شرب بجنون.. صرخ صرخة مدوية ممزقة بوحشية الألم.. غاص نصفه الأعلى في الماء العكر.. تقوض نصفه الأسفل فوق أرض مغطاة بالروث.. كفنته الظلمة الحالكة في تلك الليلة المثيرة المفزعة من ليالي الربيع»..

تنكيل مذل بالفتوة المهزوم، وانتصار كاسح للفتوة الرهيب الذي لا يقهر.

في الحكاية الخامسة تفاصيل كثيرة وتأملات في غاية الإبـداع للحياة والموت، رسم شـديد الروعـة لشخـصية مفعمـة بالمـشاعر والأفكار والشطط والجنون.. ولقد ذكرني (جـلال) عـلى نحـو مـا بشخـصية (الحـاكم بـأمر الله) وأظنـه الشخـصية الموحيـة وهـذه إشارات.

•• جلال ابن (زهيرة) والحاكم ابن (مصر الفاطمية) وقد بينا من قبل وجهات الشبه بينها وبين زهيرة في الجمال والدندشـة، كـما بينا من قبل دلالـة الاسـم (زهـيرة) ومـصر (الفاطميـة) نـسبة إلى فاطمة الزهراء.

•• جنون (جلال) و(الحاكم) لم يكن جنونا بمعنـى الهلوسـة وذهاب العقل، ولكنه نوع من الشطط في الفكر والفعل..

•• كلاهما (جلال) و(الحاكم) كان مسرفا في القتل، لا يـأمن جانبه البعيد عنه والقريب منه..

•• كلاهمـا(جـلال) و(الحـاكم) كـان نموذجـا للشخـصية المتوحدة المنفصلة عن واقعها.. كلاهما بلا رفيق أو صديق أو معين يعتمد عليه ويثق فيه.. وقد يكون من المفيد أن نذكر ان الحاكم قتل مربيه ووصيه (برجوان) حتى يتخلص من سيطرته عليه.

•• المئذنة التي بناها (جلال) تذكرنا على نحو ما بمئذنة جامع (الحاكم بأمر الله) في القاهرة الفاطمية.. نفس القاعدة المربعة والشكل الغريب بين كل المآذن.. كما تذكرنا فكرة بناء المئذنة الغريبة بفكرة لا تقل شططا حين عبر الحاكم عن رغبته في نقل مناسك الحج من بلاد الحجاز إلى القاهرة ونقل رفات الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مسجد كبير يبنيه لذلك الغرض.. كلا الفكرتين كانت محل رفض واحتجاج شديد من قبل الناس وفي التاريخ وفي الرواية..

•• كلاهما ورغم شططه وعدم الاطمئنان لتصرفاته تمتع بحب من أتباعه يصل إلى حد العبادة.. رجال عصابة جلال «نعموا بخيره حتى عبدوه عبادة».. والحاكم وجد من بين اتباعه من يؤلهه ويدعو إلى عبادته من دون الله.. ففي عام ٤٠٧هـ وصل إلى القاهرة فريق من الدعاة الفرس يضم الحسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، وحمزة بن أحمد اللباد الزوزني، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين الدرزي، وأعلنوا تأليه الحاكم، وحاولوا فرض هذه العقيدة على أهل الفسطاط، وقد ترك (الحاكم بأمر الله) هؤلاء الدعاة يقومون بالدعوة إلى الدين الجديد دون دعم منه، وان لم يمانع في منح تعاطفه لحركة تحاول ان تجمع الدولة حول شخصه

وتطلق على اتباعها اسم الموحـدين.. ولا يمكننـا ان نغفـل في هـذا السياق عن الهاجس المسيطر على (جلال) وعن تطلعه إلى صفة لـه الخلود التي لا تنبغـي سـوى لإلـه، ولا يطمـع فيهـا سـوى متألـه مجنون.. ولا يمكن في هذا السياق أيضا أن تغفل عن طائفة مازالت موجودة بيننا تدعى تأليه الحاكم، وتقول انه لم يمت، وأنـه لا يـزال حيا، وانه سيعود من جديد ليملأ الأرض عدلا..

•• (شاور) هـو اسـم أحـد أشـهر الـوزراء في نهايـة العـصر الفـاطمي، وبـسبب مـن مؤامراتـه واتـصالاته بالدولـة العباسـية والصليبيين كانت النهاية للدولة الفاطميـة.. و(شـاور) هـو اسـم العراف الذي لجأ إليه (جلال) ليحقق الخلود فـما تحقـق لـه سـوى الجنون والموت المذل..

•• (قمر) هو اسم حبيبة (جلال) وموتها المفـاجئ كـان هـو السبب في الجنون والشطط.. و(قمر) هو اسم حمـار (الحـاكم بـأمر الله) وكان حبيبا له، وهو الوحيد من بين كل الكائنـات الـذي رأى نهايته، ومات معه وان لم يعثروا إلا على جثة الحمار.

•• مـوت (جـلال) جـاء عـلى يـد امـرأة (عـشيقته زينـات الشقراء).. وأكثر الروايات شهرة عن موت (الحاكم بأمر الله) تتهم

أخته (ست الملك) بالضلوع في المؤامرة وانها قتلته لأنه عرض بها، وبشرفها، وكان ينوي قتلها.

•• (جلال) و(الحاكم) شخصيتان قلقتان ومثيرتان للقلق.. متعبتان جدا وكما ينبغي لشخصيات الروايات أن تكون..

•• الأشباح

إسحاق المعتصم، ثم هارون الواثق بالله، ثم جعفر المتوكل، ثم محمد المنتصر بالله، ثم المستعين بالله، ثم المعتز بالله، ثم المهتدي بالله، ثم المعتمد على الله، ثم المعتضد بالله، ثم المكتفي بالله، ثم المقتدر بالله، ثم المرتضي بالله، ثم القاهر بالله، ثم الراضي بالله، ثم المتقي بالله، ثم المستكفي بالله، ثم المطيع الله، ثم القادر بالله، ثم القائم بأمر الله، ثم المقتفي لأمر الله، ثم المستنجد بالله، ثم المستضيء بنور الله، ثم الناصر لدين الله، ثم الظاهر بأمر الله، ثم المستعصم بالله..

من منا نحن الحرافيش يحتفظ في وجدانه بأي أثر لأي من أصحاب هذه الأسماء؟!.. من منا يذكر أحدا منهم؟!.. ربما يذكر بعضنا اسم (المستعصم) على اعتبار أنه كان الأخير، وبه كانت النهاية الدامية، والخراب الكامل على يد المغول.. أما البقية

فمتشابهون في الأسماء والأفعال.. كلهم بالنسبة إلينا أشباح هامت في ظلمة عصر شبحي مظلم هو العصر العباسي الثاني.. عصر انحطاط وتفسخ الدول العظيمة التي قامت على يد عظماء وآل مصيرها في النهاية إلى أشباح.. وأظن أن نجيب محفوظ قد استوحى هذا العصر وهو ينسج الحكاية الثامنة من حكايات ملحمة الحرافيش وتكفي إشارة واحدة أراها جديرة بالتأمل.

•• في الحكاية يقتل (شمس الدين) أباه (جلال) ليصل العبث والصراع في بيت آل الناجي إلى منتهاه.. وفي التاريخ قتل (المنتصر بالله) أباه (جعفر المتوكل).. ومن الطريف أن نذكر أن (جلال) الأب القتيل في الرواية كان مسرفا في التهتك، كارها لأهله، وأصله، يجاهر بسبهم، والحط من شأن رموزهم العظيمة، مما أوغر قلب الابن (شمس الدين) فكانت ضربته له مليئة بالكراهية والرغبة المحمومة في القضاء على رجل في وجوده عار على آل الناجي.. نفس هذا الموقف في التاريخ.. فمما يروى أن الخليفة العباسي (جعفر المتوكل) كان مسرفا في التهتك وكان يلذ له سب آل البيت في مجالسه وان ابنه (المنتصر بالله) أبدى امتعاضا من سب أبيه لعلي وآل البيت فرد عليه الأب ببيت من الشعر يسبه فيه، ويسب آل البيت – ولا ضرورة لذكر البيت فقد كان فاحشا أشد

الفحش – مما أوغر قلب ابنه (المنتصر بالله) فقتله واعتلى كرسي الخلافة من بعده واشتهر بـ(قاتل أبيه).. إنه نفس اللقب الذي حاز عليه شمس الدين بن جلال بن جلال بن زهيرة الناجي..

على كل حال (شمس الدين) الابن القاتل.. و(جلال) الأب القتيل.. و(سماحة) الحفيد الذي اعتلى عرش الفتونة بالصدفة.. ثلاثتهم يحملون أسماء لثلاثة من الفتوات العظام من آل الناجي.. مجرد أسماء خالية من روح الفتونة والحلم بالعهد والعدل.. أسماء خالية حتى من الجنون وجسارة من يصارعون المستحيل.. ثلاثة أشباح ذكروني بعصر شبحي اعتلت فيه كراسي الحكم الإسلامي أشباح حملت أسماء عظيمة ولم تحمل من جوهر العظمة أي شيء..

•• سارق النغمة:

الحكاية التاسعة من حكايات ملحمة الحرافيش هي الأقصر.. ثمانية وثلاثون مقطعا فقط .. بدت لي كنسمة خفيفة بعد هجير الحكايات السابقة عليها.. بدت لي كبشارة.. كومضة ضوء تسبق الإشراق والنور الذي ستسطع به الحكاية العاشرة والأخيرة من حكايات الحرافيش..

بطل الحكاية التاسع هو (فتح الباب) وقد ذكرتني قصته القصيرة بواحدة من أقصر القصص، ومن أكثرها تأثيراً في وجداننا

نحن الحرافيش.. ذكرتني قصة (فتح الباب) بقصة (سيدنا يوسف) وأظنها مصدر الإلهام وهذه إشارات:

•• الصفات المشتركة بين الشخصيتين الأساسيتين.. الجمال والرقة والعذوبة والأمانة والجدية في العمل، وهي الصفات التي أهلت (فتح الباب) للعمل خازنا للغلال عند الفتوة (سماحة).. وهي نفسها الصفات التي أهلت (سيدنا يوسف) للعمل خازنا للغلال عند عزيز مصر.

•• العلاقة الخالية من المودة بين (سماحة) الفتوة وأخيه غير الشقيق (فتح الباب) ذكرتني على نحو ما بالعلاقة المماثلة بين (يوسف) وأخوته غير الأشقاء.

•• في حكاية (سارق النعمة) فيضان شحيح ذكرني بالسنوات العجاف، وكلاهما (فتح الباب) في الرواية، و(سيدنا يوسف) في القصص الديني كان له دوره في الإنقاذ وتوزيع الغلال على المحتاجين..

•• في الحكاية أسماء ذات دلالة مثل (سنبلة) وهو اسم (أم فتح الباب) و(ضامر) وهو اسم أحد أفراد عصابة (سماحة) الفتوة.. هذه الأسماء ذكرتني على نحو ما بالآية الكريمة في سورة يوسف «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع

عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون».. كما ذكرني اسم (فتح الباب) على نحو ما بالآية الكريمة في سورة يوسف «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم».. ترى هل أوحت الآيات الكريمة لنجيب محفوظ بأسماء شخصياته.. أظن ذلك.

•• هذه الحالة من الحياء التي قابل بها (فتح الباب) زوجة الفتوة (فردوس هانم) ذكرتني على نحو ما بحياء (سيدنا يوسف) أثناء لقائه زوجة العزيز.

•• صرة الرحمة.. تلك الهبة أو الصدقة التي كان يوزعها (فتح الباب) في السر على الفقراء والمحتاجين من الحرافيش ذكرتني على نحو ما بـ(سيدنا يوسف وهو يكيل الحبوب ويزوعها على المحتاجين.. كما ذكرتني بالآية الكريمة في سورة يوسف «فلما دخلوا عليه قالوا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يحب المتصدقين».

•• وفي النهاية.. هذه الحالة من الإحسان والتصدق تشير إلى وسيلة من الوسائل الرومانسية أو المثالية لإقامة العدل.. فهل يتحقق العدل بحل بريء فردي أو بالنية الطيبة؟!.. وهل تصمد

البراءة طويلا أمام غل وطمع ودهاء وتجبر الفتوات سارقي النعمة؟!.. من الطبيعي أن «تنتهي سيرة فتح الباب وجهاده.. مثل صحوة قصيرة في يوم طويل ملبد بالغيوم»..

•• *التوت والنبوت*:

بطل الحكاية العاشرة والأخيرة من حكايات الحرافيش هو الكمال والاكتمال.. اسمه (عاشور) وفيه يتجسد حلم (آل الناجي) وحلم الحرافيش.. فتوة ولكنه ليس كأي فتوة.. به تكتمل الدائرة وتختتم الملحمة بخير ختام..

عرف (عاشور) اليتم وهو طفل في السادسة.. تربى في بيت فقير من بيوت آل الناجي فلم يعرف رفاهة الثراء ولكنه عرف شرف النسب وفضيلة النضال في سبيل الحياة.. عمل صبيا برعي الأغنام فعرف في المراعي روعة السكون، وهدأة السماوات والأرض، وتشبعت روحه بجمال الخلق، وجلال الخالق.. كان متأملا عظيما.. و«كان إذا ضاق صدره مضى إلى ساحة التكية يؤاخي الظلمة ويذوب في الأناشيد».

لم يعرف عاشور في طفولته وشبابه سوى البراءة والعمل ومتعة التأمل.. لم يخالط أقرانه في اللهو واللعب.. «لم يظهر قط في البوظة أو الغرزة أو القهوة».. و«كان قويا مهذبا، غطى تهذيبه على

قوته فواراها عن الأعين» و«كان نبيل الرأس، غليظ القسمات، غامق السمرة.. في وجنتيه بروز وفي فكيه صلابة».

عانى كما يعاني كل الحرافيش من بطش وتجبر الفتوة (حسونة السبع) فاضطر إلى الخروج من الحارة وأوى بأمه إلى مكان بعيد، ولكن خروجه لم يكن بطعم الهرب أو الفرار بقدر ما كان بطعم (الانسحاب التكتيكي) حتى تأتي اللحظة المناسبة للعودة الظافرة..

في ملجئه أو مهجره دوام على ما تربى عليه من تأمل.. تأمل «الحاضر والماضي.. فكر فيما آل إليه حال الحرافيش وتساءل عن السبب وراء انتكاس عهد الناجي العظيم.. كان على يقين أن الذنب لم يكن ذنب جده (الفتوة) الكبير ولكنه تساءل في سره عما كان ينقصه، عما أفشل سعيه النبيل عقب وفاته أو عقب وفاة شمس الدين».. «مادام يوجد خطأ فلابد أن يوجد صواب، وإذا وجد الصواب مرة فمن الممكن أن يوجد مرة أخرى، وإذا كان قد انتكس بعد وجوده فيمكن أن نضمن له حياة لا تعرف الانتكاسة»..

انه لا يكف عن التفكير ويجلس طويلا مع أمه يحدثها وكأنه يخاطب نفسه ويقول وهو يضع يده على مكمن الداء في روح الأمة «الشيطان ينتصر بالتسلل إلينا من نقاط الضعف فينا» ويقول

«حبان يشكلان أضعف ما فينا: حب المال وحب السيطرة على العباد».

عقل مستنير يعيد التفكير فيما كان ليتأكد من مواطن القوة والضعف.. روح واثقة. قوية، فعالة، تسعى إلى تحقيق العدالة على قوائم لا تهتز ولا تتغير بتغير الزمن وتبدل الفتوات..

يلتقي (عاشور) مع الحرافيش من أهل الحارة في سوق الدراسة وسرعان ما ينال حبهم وثقتهم حين ينجح في ملء أرواحهم بالثقة.. يقول لهم «ان العدل قد يتحقق ساعة في ظل فتوة عادل لكن ماذا بعده؟».. ويقول لهم بجدية المؤمن بكل كلمة يقولها «لقد حلمت حلما عجيبا.. رأيتكم تحملون النبابيت».

ها هو يؤسس عهدا جديدا، الفتونة فيه لفكرة العدل، والفتوة فيه هو كل إنسان يدافع عن العدل.. الكل فتوات في خدمة الفكرة.. وإذا كان جده قد اعتمد على نفسه لتحقيق العدالة فها هو يجعل من كل حرفوش فتوة..

وها هو يعود إلى الحارة قويا بأهلها المؤمنين بأفكاره.. ها هو يدخلها دخول الفاتحين فتتهاوى كل قلاع الظلم والقهر، وتنهد كل أصنام الجهالة والخرافة.. «ولم يتوان عاشور ربيع الناجي ساعة

واحدة عن تحقيق حلمه، ذلك الحلم الذي جذب به الحرافيش إلى ساحته ولقنهم تأويله في الخلاء.. وسرعان ما ساوى في المعاملة بين الوجهاء والحرافيش، وحتم على الحرافيش أمرين: أن يدربوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تهن قوتهم يوما فيتسلط عليهم وغد أو مغامر، وأن يتعيش كل منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم.. وهكذا بعث عهد الفتوة البالغ أقصى درجات القوة وأنقى درجات النقاء».

الحكاية الأخيرة من حكايات ملحمة الحرافيش فيها الرؤية المحمدية للعدل القائم على (الحق).. (حق الله) في أن يطاع في أمر جوهري من أوامره «ان الله يأمر بالعدل».. و(حق الناس) في العيش في ظل العدل.. وحق الناس (كل الناس) في الدفاع عن العدل ضد أي فتوة وبالقوة.. وبالنبوت عند الضرورة.

في الحكاية الأخيرة روح عظيمة مهيمنة وملهمة.. وفيها مسك الختام.